العمل ١٠ تشرين الثاني ١٩٥٠

في الندوة اللبنانية

عالم اليوم كما يراه ميشال شيحا

رحنا ليلة أمس الأول، نجوب "عالم اليوم" برفقة، بل بقيادة ميشال شيحا.

وإذا العالم كله، ظواهره والبواطن حاضره والمستقبل، طوعنا ساعة، من الزمن، نطوف حوله براحة، أو هو يطوف في فكرنا.

كنا جميعاً غفيراً نملأ القاعة الجديدة التي استأجرتها وزارة التربية، في بناية الشرتوني، وخصتها بالمحاضرات (ليقال أنها، أي الوزارة ترعى النهضة الثقافية) وكان يتقدمنا رهط من اجلاء الدنيا والدين يرون في ميشال شيحا إماماً – من حيث الفكر ولا شك، ولكن خصوصاً من حيث المقام والوضعية والنفوذ – وكان يتخللنا سرب من الأنيقات المتغندرات اللواتي يعتقدن أن العقل يطلى، وتخفى، أو تحسن حقيقته، مثلما يطلى الوجه. وأما نحن فجمهور مغمور من محبي الثقافة، أو مدعينها، يحيا نشاطنا بنشاط الندوة اللبنانية وتتغذى محبتنا – وادعاءاتنا.

ليس ادل على حيوية الندوة اللبنانية والمقام الذي بلغته بفضل ما يبذله ميشال اسمر مؤسسها – من مجرد وجود ميشال شيحا بين محاضريها، في كل مواسمها. وما ذاك وحسب لجلال شأن ميشال شيحا في "دنيا الفكر – بل لأنه رجل آثر بعناد في سبيل تكنيز الفكر، أن ينطوي عن الدنيا وراء حرفين من اسمه، وينزوي وراء متاعب مصرفه. فمن المرات النادرات التي يقبل أن يظهر فيها بكامله، هي محاضراته في الندوة اللبنانية.

فكيف لا يزدحم الناس لسماع محاضرة رجل يتهيبون ذكاه ويجلون قدره – خصوصاً عندما يكون موضوع المحاضرة عن "عالم اليوم" الذي حارت الأفهام فيه – عندما تكون هذه المحاضرة استهلالاً لموسم الندوة اللبنانية – أي للموسم الأدبي ؟

قراءة ميشال شيحا، في زاويته من "لوجور" متعة يشرق لها كل فكر كل صباح (فالفرنسية تكتب اذاك، على أصفى ما يشتهيه ذوق – والأفكار تتجلى على ارصن وأرشق وأدق وأعمق ما يستسيغه منطق).

وسماع ميشال شيحا، متعة للأذن أيضاً : ففي صوته جرس له وقع موسيقى ناعم خافت.

وأما ثقافة ميشال شيحا فمما يبهر عمقاً وشمولاً. يكفي أن يتكلم ويستعرض الأمور، لندرك أنك مهما توهمت أن لك في العلم معرفة فقد فاتتك أشياء وأشياء.

عالم اليوم – عالم مشاكل.

عالم علوم بالطبع. ولكن كل علم مشكلة – أو كل علم جاء يعقد المشكلة. فمشاكل العالم كلها عبارة عن مشكلة واحدة. مشكلة تناولتها السياسة بحيث جعلت كل نشاط يصب فيها. وإنما هي مشكلة الإنسان، ومصيره :

هل حدود مصير الإنسان في عيشه ؟

أم هي أبعد من عيشه، وبعد عيشه ؟

من هنا إن الإنسان انكب ينقب ويبحث ويحاول أن يكتنه. فتعددت وتشعبت واتسعت الآفاق ورحبت حتى صغرت الكرة الأرضية وضاقت.

... هذه الكرة !

لم يكن العالم أكثر من كرة، في محاضرة ميشال شيحا.

ونحن نحلق فوقها. ونرى ضيقها وانكماشها.

لم يكن شعورنا بأننا "أمام" كرة صغيرة. بل كنا نرى هذه الكرة وقد غاب عنا شعورنا بأنفسنا، كأننا ننظر إليها من طائرة، أو كأنها تمرّ تحت أعيننا في سينما، مناظر مأخوذة من طائرة.

انعدم كل قياس – وتساوى كل شيء. لا روعة أمام شاهق قمة، ولا هيبة فوق رهبة واد – كل المعالم والنواتىء، أمحت .

وانبسط، وتبسط، كل شيء.

هكذا مرّ العالم في محاضرة ميشال شيحا.

وكنا نشعر شعوراً وحيداً : إننا "فوق" هذا العالم.

إلاّ أنه لم يكن شعوراً مرتاحاً – ولا يمكن القول أنه شعور دوخة، أو مضايقة. بالأصح إنه "لا شعور" ... "لا شعور" والعالم كله ينبسط أمامنا.تاريخه يختصر بجملة،علومه تختصر بعناوين. إمكانياته تختصر بإحصائيات. نزاعه ومستقبله يختصران ببضعة نعوت .

ناهيك بأن كل شيء صحيح، واضح، لا مناص من أن تتقبله !

أنا من المعجبين بميشال شيحا. أتهيب ذكاءه وأعد قراءته متعة، بل توجيهاً .

ولكن، لماذا لا أقولها ؟ تضايقني هذه الثقة المطمئنة التي فيه. يضايقني أنه شمل المعرفة حتى أبعد حدودها وأعمق أغوارها – ولا يبدو أنه يتهيب معرفته هذه، ولا يبدو أنه ينوء بها – لا تحيره ولا تحزنه، ولا تفرحه.

قلت انني أتضايق، أعود فأصحح : ينعدم فيّ كل شعور أمام ما أراه، في ميشال شيحا، ويتجلى حتى في أسطره العشرين أو الثلاثين كل صباح ، من ثقة واطمئنان. اطمئنان العارف بكل شيء، المتيقن من كل أمر. يعرف ما لا نعرف. ما لا يمكن أن نعرف. لا يعرفه النبي، ولا يعرفه المتصوف (اذن، لمازجت معرفته حيرة خفية، أو غبطة) حتى ولا ببحث وتفتيش وقلق ولكنه يعرف عن اطلاع ومطالعة.

ليس من موضوع غريب عنه فضول المعرفة فيه يمتد الى كل موضوع كل موضوع له مكانه في معرفته، من الروحيات حتى في تشعب لاهوتياتها، الى الفلسفة في أبعد ركائزها من متنوع العلوم ، الى الفنون في دقائق جمالاتها ومختلف طرائفها وفي أصولها الصناعية، الى السياسة في أطوارها وتاريخها ومبادئها ودولها ومعمياتها وغاياتها ..

إن أديباً مثل ميشال شيحا، يستند فكره الى مثل هذه الخلاصة من المعرفة لحري بالإعجاب والإكبار. ولكان حرياً بالمحبة، المحبة التي تقود، لو أن في فكره ظلاً واحداً، أمام ما لديه من معرفة.

إن فيه توازن العافية. العافية التي يهون لديها كل شيء.

لا يظهر أنه يقوم بمجهود : هو يعرف ! وهو مطمئن واثق بما يعرف.

أترى لنفسيته توازن جسمه ؟ كانت هيئته حرية بأن تكون لها روعتها الخاصة ولكن التوازن أضفى على ملامحه، فكأن لا جبهة واسعة الرقعة، كما ترى عند التأمل، ولا أنف فيه قوة، ولا شفاء فيها نهم وكبت. جميع هذه المعالم تضيع في توازن، لا يظهر أنه من جهد الارادة.

توازن لا يتجاوب ونفسك : ليس مما يريح قلقاً، ولا هو مما يستثير روعة.

توازن، تبهت أمامه، وتمحي مشاعرك كلها.

هكذا كانت محاضرته.

معرفة لا يند عن طرف، ولا يحتجب عنها خط، من المشكلة.

معرفة واثقة مطمئنة.

إلا أنها لم تستطع أن تدفعنا الى الإطمئنان، وقد دلنا الى مكانه وأوقفنا عند بابه.

د.د.